كلمة الأستاذ الدكتور محمود السيّد

رئيس لجنة التمكين للغة العربية

نائب رئيس المجمع

أيها الحفل الكريم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لكم أحس بالصعوبة وأنا أقف هذا الموقف في حفل تأبين علم من أعلام الحكمة والثقافة والأدب في أمتنا لعجزي عن إيفائه حقه تجاه ما يتسم به من مزايا ومناقب، إنه علم من أكبر الهامات الأكاديمية العلمية والأدبية، ذلكم هو الأديب الكبير الراحل الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر رحمه الله.

لم تتح لي الظروف لقاء فقيدنا إلا في ثمانينيات القرن الماضي، وكنت سعيدًا أيما سعادة بسيرته العطرة وذكره الطيّب على ألسنة المدرسين والطلاب في جامعة وهران بالجزائر حيث التحقتُ بها مدرسًا عام خمسة وسبعين وتسعمائة وألف، وكان الراحل الكبير قد درّس فيها من قبلُ أربع سنوات قبل التحاقي بها.

ولكم هو جميل ورائع أن يكون أحدنا سفيرًا لبلاده أنّى حلَّ وحيثما ارتحل، فيذكر الآخرون وطنه بكل إكبار وتقدير واحترام بفضل سلوكه الحميد وعقله الرشيد، ويقدّمُ النموذج الحيّ والقدوة الصالحة في تصرفاته وسائر حركاته، هاجسه خدمة الرسالة التي وقف نفسه لها، وغايتُه تأدية الأمانة التي كلفها، ولقد كان الدكتور الأشتر رحمه الله ذلك السفير المجلي المتميز لوطنه في حلّه وترحاله، خدمه بكل نزاهة وإخلاص وتجرد.

كان يتسم رحمه الله بحسه النقدي وحصافة الرأي منذ أن كان طالبًا في الدراسات العليا، فها هوذا يسبغ على كل أستاذ درّسه صفة تلمّسها في شخصيته من خلال تدريسه إذ يقول : «كنا نعشق في كل أستاذ صفته: في أحمد أمين الوضوح والعمق، وفي أمين الخولي

القدرة على الإثارة والآراء المتجددة، وفي عبد الرحمن عزام نقاء عروبته ورعايته للطلبة العرب. ولكننا كنا نلتقي جميعًا هذا اللقاء العفوي من خلال هذه الشخصية الآسرة التي لا يكاد يفلت من أسرها أحد شخصية طه حسين التي كان لها في عقولنا وقلوبنا هذا الحضور الدائم الذي لا يغيب، والمكانة الرفيعة التي لا تتأخر، والعطاء الخصب الذي لا يدانيه عطاء، إن وجوده المعنوي كان يسبق حضوره المادي، وهو من أوائل المفكرين العرب الذين ربطوا بين حرية الأديب وحرية الأدب».

وبعد أن التحق بالتدريس الجامعي كان رحمه الله مدرسًا مجليًا، وباحثًا أصيلًا، ومؤلفًا متميزًا، وكاتبًا قديرًا، وإعلاميًا كفيًا ومؤثرًا في العقول والقلوب والضمائر. مارس التدريس في مختلف المراحل التعليمية، كما مارس التأليف والكتابة الصحفية، والمشاركةَ في الندوات الإذاعية والتلفزية والإشرافَ على رسائل الدراسات العليا ومناقشةَ الرسائل الجامعية، فكانت حياته كلها حافلة بالعطاء وزاخرة بالخصب والنماء.

وتعد كتبه وبحوثه ومقالاته كنوزًا في حياتنا الثقافية، ينهل منها طلبة العلم والباحثون المهتمون بأصالة الفكر وبناء الأمة متعة الروح والعقل معًا، يشعرك بها في استعماله لغة تأسرك بحلاوتها وعذوبتها ورقتها بأسلوب ساحر يدفعك إلى التعلق بالموضوع الذي يتناوله دون ملل.

وماذا عساي أن أعدد من مؤلفات فقيدنا التي أجدني عاجزًا عن تعدادها وحصرها ومنها: التسهيل في دراسة الأدب الحديث، النثر المهجري وفنونه، دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت، نصوص مختارة من الأدب العباسي، غروب الأندلس وشجرة الدر، نصوص مختارة من الأدب العربي الحديث، معالم في النقد العربي الحديث، دراسات في أدب النكبة، العربية في مواجهة المخاطر...الخ.

وهكذا ترون أيتها السيدات، أيها السادة أن المشهد الثقافي فقد علمًا كبيرًا وعمودًا

من أعمدة الثقافة العربية، وشعلة أنارت البصائر على مدى ستين عامًا. ولم يقف إشعاعه عند حدود وطنه الصغير، بل امتد بعيدًا حتى عم أكثر بقاع الوطن الكبير في الجزائر والإمارات ولبنان ومصر والكويت.

أيها الحفل الكريم

بعد عودة كل منا إلى جامعتنا الأم، جامعة دمشق، كنت ألتقي الدكتور الأشتر في كلية الآداب بالجامعة، وطالما بحثنا في شؤوننا الجامعية، ثم التفتنا معًا إلى كتابة المقالة الصحفية متمثلة في «حديث الصباح» بجريدة البعث. وشكوت إليه مرة الضيق الذي أكابده من جرّاء كتابة الحديث وتقديمه في موعد محدد، وكنت آنئذ في السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات عميدًا لكلية التربية بجامعة دمشق، ولم يكن لديَّ الوقت الكافي للتفرغ إلى كتابة الأحاديث، فابتسم رحمه الله ابتسامته العذبة المعهودة، وقال لي: أخي محمود أحس بما تشعر به، ولكنني لا أوافقك على الرأي في التخلي عن كتابة الحديث، وأقول لك بكل صراحة لقد راودتني فكرة التخلي كما تراودك حاليًا، ولكنني عدلت عنها لإيماني بأن الكلمة مسؤولية وأمانة، وأن ثمة خيرًا في المقالة الصحفية، وأننا في أحاديثنا الصباحية كما في ندواتنا التلفزية نؤدي رسالة، وإذا تخلينا عن واجب الأداء فهذا يعني أننا نسير في الطريق الخطأ، وأربأ بك أن تسير فيه. والحق أقول لقد كانت كلماته بلسمًا ناجعًا ودواء شافيًا لما كنت أكابده، وتابعت كتابة «حديث الصباح» في الجريدة.

وتكررت لقاءاتنا في مناسبات متعددة، يبث كل منا إلى أخيه شؤونه وشجونه، وشاركنا معًا في ندوات مجمع اللغة العربية بدمشق ومؤتمراته، وفي الندوات التي كانت تقيمها وزارة الثقافة لتكريم بعض الأدباء الراحلين. ثم صدر القرار الجمهوري المتضمن تشكيل اللجنة العليا للتمكين للغة العربية، وكان عضوًا فيها، وأُوكل إلى اللجنة وضعُ خطةِ عمل وطنية للتمكين ومتابعةُ التنفيذ على أن تَعقِد اللجنة اجتماعات دورية لهذه

الغاية، وتقدمَ تقاريرها الشهرية إلى السيدة الدكتورة نجاح العطار نائب السيّد رئيس الجمهورية راعيةِ هذا الحفل. واعتذر الأستاذ الدكتور الأشتر رحمه الله عن عدم تمكنه من حضور هذه الاجتماعات في دمشق لوضعه الصحي، فاقترحتُ باعتباري رئيسًا للجنة أن نرسل إليه التقاريرَ بوساطة الناسوخ (الفاكس) فيطلعَ عليها، ويزودَنا بملاحظاته وآرائه التي لا يمكن للجنة الاستغناءُ عنها بأي صورة من الصور، ووافقت السيدة نائب الرئيس على المقترح، وسارت الأمور على هذا النحو، فكنا – أعضاء اللجنة – ننتظر وصول النسائخ منه لنقرأها ونفيدَ منها في عملنا، إلا أنه حاول الاعتذار للمرة الثانية، وأرسل نسيخة إليَّ طالبًا رفعها إلى السيدة نائب رئيس الجمهورية، ويقول فيها: «وبعدُ فإني أجدني اليوم يا سيدتي، ونحن في الطريق إلى إتمام العام الثالث من عمر اللجنة- وأكون عندها بلغت الثمانين- مدعوًا إلى تسليم الأمانة، ليتاح تسميةُ البديل، شاكرًا للسيّد الرئيس ثقتَه الغاليةَ، ولك يا سيدتي أجملُ ما يحفظ الإنسان للإنسان من جمال الصلة وشكرِها أيضًا. أسأل الله حسن الخاتمة، وأن يهيئ للجنة من بعدُ سبل التوفيق فيما تتولى أمانته، وأن يلازمها فيه الإيمانُ بالحرص على رعاية أسس التمكين». إلا أن الاعتذار لم يقبل بسبب الحرص العميق على استمراريته في اللجنة مهما تكُ ظروفه بغية الإفادة من ملاحظاته وآرائه القيمة.

أيها الحفل الكريم

يقول شاعرنا العربي:

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وفي ضوء ذلك أشهد أن نفسَ فقيدنا كانت عاليةً وعاليةً جدًا، فإذا ذكر سمو النفس ذكر فقيدنا الغالي، وإذا ذكر التهذيب الجم ذكر فقيدنا الغالي، ولقد لمستم هذا التهذيب في الرسالة السابقة، وتلمسونه في جميع جوانب حياته، فها هو ذا يرسل رسالة إلى أمينة سر لجنة التمكين يستهلها قائلًا: ابنتي الفاضلة الآنسة ريام: صباح الخير، أكون شاكرًا لو تكرمت

بنقل شكري العميق للسيدة الدكتورة نجاح العطار نائب السيد رئيس الجمهورية على دعوتيها الكريمتين الغاليتين وعجزي عن تلبيتهما، ودمت لكل جميل طيّب».

وما من رسالة أرسلها إلى اللجنة إلا ويحيي أعضاءها ويشكرُهم ويدعو لهم بالخير والتوفيق، وما من كتاب ألفَّه إلا وأرسل إليَّ نسخة منه هدية وقد توّج الإهداء بعبارات المودة والتحية والذكرى الطيبة.

تلك هي بعض سمات فقيدنا الراحل، ومع أننا نستخدم كلمة «راحل» إلا أنه حيٌّ في العقول والنفوس والضمائر كما أن الخالدين لا يموتون، إنهم يبدؤون خلودهم ساعة يقال إنهم ماتوا، ذلك أنهم أصبحوا بالذي خلّفوا من أثر، وأبدعوا من أدب جزءًا منا ومن تاريخنا وإرثنا، ألم يقل شاعرنا العربي:

موت النقي حياة لا نفاد لها قد مات قوم وهم في الناس أحياءُ

ولله در أمير الشعراء شوقي إذ يقول:

المجد والشرف الرفيع صحيفةٌ جعلت لها الأخلاقُ كالعنوان

وجدانك الحيُّ المقيمُ على المدى ولربّ حيٍّ ميّتِ الوجدان

ولقد تجلّى هذا الوجدان الحيّ المقيم على المدى في جوانب حياة فقيدنا كلها، وإذا كان شاعرنا العربي يقول:

قد عرفناك باختيارك مُذ كا ن دليلًا على اللبيب اختياره

فإننا سنأخذ مثالًا على مشاعره الإنسانية المرهفة من اختياره مواقف إنسانية في الشعر والحياة معًا، وها هو ذا يتخيّر ثلاث قصائد لشعراء شاعت على ألسنة الناس قصيدة واحدة من شعرهم طغت على ما قالوه جميعًا. ومن أصحاب الواحدة أي القصيدة الواحدة التي شاعت على الألسنة دون غيرها الشاعرُ الإربلي البحراني في قصيدته الهائية على أنها مثال للفجيعة بالإنسان:

ربّ دار بالغضا طال بلاها عكف الركب عليها فبكاها

كان لي فيها زمان وانقضى فسقى الله زماني وسقاها!

ومن أصحاب الواحدة الشاعر العراقي ابن زُريق البغدادي، وقد تخيّر قصيدته الهائية أيضًا على أنها مثال للفجيعة بالحياة، إذ يصور فيها تجربة الغربة والحنين، وهي في معنى من معانيها تحمل الخيبة التي تتعدد صورها في حياة الناس، ويقول فيها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقًا ولكن ليس يسمعه

جاوزت في لومه حدًا أضرَّ به من حيث قدرت أن اللوم ينفعه

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلًا من عنفه فهو مضنى القلب موجعه

ومن أصحاب الواحدة الشاعرُ الأندلسيُ أبو البقاء الرندي، وقد تخيّر قصيدته:

لكلّ شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرَّ بطيب العيش إنسان

على أنها مثال على الفجيعة بالوطن عندما تفككت ممالكُ الأندلس وسقطت معظم حواضرها بلنسية، مُرسية، قرطبة، اشبيلية:

قواعد كنَّ أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركانُ

وينادي الشاعر فيها بأعلى صوته:

ألا نفوسٌ أبيّات لها همَمٌ أما على الخير أنصار وأعوان؟

لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ إن كان في القلب إسلامٌ وإيمان!

وما اختيار فقيدِنا الغالي لكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وإعادةُ نشره بعد أن أعاد النظر فيه إلا لإيمانه بالمقاومة إذ يقول: إن غاية ما أبتغيه من نشر الكتاب مرة أخرى في طبعته الكاملة هذه بعد أن أعدت النظر فيه إعادة شاملة، أن تقع الإفادة منه في هذه الأيام الحرجة التي نواجه فيها غزوًا استيطانيًا جديدًا يذكّر بغزو الإفرنج أيام حروب الفرنجة في

عصر أسامة، فيعين في نشر نصوصه على تقويةِ روح المقاومة في نفوس الناس على أنها الطريق إلى عزة الأمة، وبثِّ الثقة والاعتبارِ بما نجم لنا تحقيقُه تلك الأيام واستخلاصِ الدروس منها، فالكتاب في جملته يعد فوق مزاياه الفنية وثيقة حية قل نظيرها في رصد إحساسنا بالتفوق الحضاري العام في القرون الوسطى».

وكان يرى أن في الاطلاع على كتب الرحلة في القديم والحديث ثقافةً متصلة بالعصر الذي نحن فيه، لم يصغها الفكر وحده، بل صاغتها النفس المنفعلة بمجموعها حِسا وفكرًا ووجدانًا وحركة حية، فهذه تجارب تاريخية إنسانية لم يبدعها الخيال، ولكن صاغتها حقائق المشاهدة والانفعال الحيّ فيها.

وفي وقفاته النقدية الأدبية على أعمال بعض النقاد العرب المعاصرين من أمثال الدكتور أحمد كمال زكي، والدكتور محمد زكي العشماوي، ورجاء النقاش، والدكتور عبد الملك مرتاض، كان يرى أن في هذه الوقفات تقريبًا للقارئ العربي وطلاب الجامعات بخاصة من مذاهب الفكر والفن وأعلامها في الغرب، وما يشكو منه إنسان العصر من غلبة المادة على الروح ومن الغربة وضعف الإيمان بالخالق والتمرد عليه وشيوعِ النزوع إلى العبثية وافتقادِ الأمن.

ويحسن بنا في هذه المناسبة أن نطلع على جانب من درر أفكاره النيّرة في قضايانا الثقافية لنتبين رجاحةَ الرأي وسدادَه بعد أن تعرفنا رهافةَ الحس ويقظةَ الوجدان.

أما آراؤه التربوية فقد اتسمت بالحكمة ومواكبة الاتجاهات التربوية الحديثة فهاهو ذا يقول: إن رسالتنا الجامعية الحقيقية هي في تكوينِ الفرد وتنميةِ شخصيته الفكرية وإيقاظِ وعيه ودفعهِ إلى اقتحام المجهول، والكشفِ عن الآفاق المعرفية الجديدة وإبداعِ الحلول للمشكلات الماثلة فيها. ونحن في جامعاتنا العربية نتوجه أكثر ما نتوجه إلى خطاب الذاكرة لا إلى خطاب العقل، ونرمي إلى تحفيظ الحقائق لا إلى تركيبها أو إبداعها.

إن جوهر العمل التربوي هو تنشيط الحركة الذهنية. ولقد علمتني الحياة أن أغنى الغنى غنى النفس، وأخصبَ الخصب خصبُ التكوين ومواتاةُ الطبع، وعلمتني أن أساس النجاح في عملنا التربوي يقوم على تقليص المسافة بيننا وبين الطالب، فبغير الإحساس بعمق الصلة بيننا وبينه، صلةِ الود والتقدير المتبادل، تصبح العملية التربوية جافة، ويغيب فيها الجانب الإنساني الحي».

وجميل جدًا موقفه من التراث والمعاصرة، فقد دعا رحمه الله إلى فهم التراث وفحصه والإفادة من كنوزه المعرفية والجمالية في خدمة الحاضر، فالتراث كما يرى في كتابه «فواصل صغيرة في قضايا الفكر والثقافة العربية» صخرة مكينة يمكن أن نجعلها عقبة في الطريق إلى المستقبل، ويمكن أن نبني عليها بيتنا الحديث: والمطلوب أن نكون أمناء وأحرارًا في وقت واحد، أمناء على التراث نحفظه ونفهمه ونقدره ونغار عليه، ولا ننقطع عنه، وأحرارًا لا نتعبده ولا ننقطع إليه.

ولكم يذكرني موقفه هذا من التراث بموقف أستاذه وأستاذي الدكتور المجمعي أمجد الطرابلسي رحمه الله إذ يقول: «السلف لا ريب موضع احترامنا وآثارهم موضع اعتزازنا، وويل لأمة لا تطبع أبناءها على هذا الاحترام، ولا تعوّدهم هذا الاعتزاز، ولكن احترامنا السلف يجب أن يكون احترام الأحرار، واعتزازنا بآثارهم يجب أن يكون اعتزاز الأعزة، فإذا انقلب الاحترام تعفيرًا للجباه، أو غدا الاعتزاز جثوًا على الركب كان الشلل فالجمود فالموت».

أما الحداثة في نظره فهي المعاصرة، وهي قبول العصر والتفاعل معه، والقدرة على اختيارِ طريقنا منه والدخولِ بأنفسنا وتسجيلِ هويتنا الحضارية فيه، وهي ما لا يستطيعه الغرباء عن العصر والمنقطعون عنه إلى الماضي، ولا الغرباء عن أنفسهم الذين انقطعوا عن أصولهم، فهم جميعًا غرباء يقفون على خط واحد، وإن وقفوا في طرفين متقابلين.

أما موقفه من العولمة فيتمثل في قوله: «علينا ألا نقصّر في دراسة منجزات العصر في كل الميادين، وألا نقصّر في تعلم اللغات التي تدنينا منها، والانفتاحِ على حقائق المعرفة الإنسانية في العلوم كافة، ودراسةِ ما نملكه في ضوئها وتقويمِه في غير تعبد ولا تصلب ولا خوف ولا إحساس بالنقص، فالمعرفة حق لكل البشر إذا استطاعوا امتلاكها، ثم إن الحضارات الضعيفة حين تنغلق على نفسها، وتجتر ثقافتها الخاصة، وتقيم من حولها الأسوار بدعوى الحفاظ على نفسها تؤتى من مأمنها ويقتلها ضعفها، وليس من بديل أمامها إلا أن تغرِسَ أقدامها في تربة ثقافتها، وتفتح منافذها لرياح الثقافات الأخرى».

أيها الحفل الكريم

إذا كنا قدمنا باقة من اختياراته في تسليط الأضواء على بعض المواقف الإنسانية والفكرية فحري بنا أن نقدم باقة من آرائه العملية في مجال التمكين للغة العربية مادامت الكلمة هي كلمة لجنة التمكين.

لقد كان فقيدنا متألمًا أشد الألم من واقع الحال اللغوي في أقطارنا العربية ولطالما شكا من سوء هذا الواقع، فلنستمع إليه يقول: «إن الأمة تعاني في أقطارها المختلفة من زحف العاميات مفردات وأنساقًا على التعبير الشفهي والكتابي في مراكز الحياة الإدارية والوظيفية وصولًا إلى الخطاب نفسه، حتى أصبحنا نشهد اليوم من طغيان العاميات في أجهزة الإعلام المرئي والمسموع ما أخذ الناس والمسؤولون في المؤسسات الثقافية قاطبة يألفونه ويستطيبونه وينامون عنه، وأصبحنا نسمع على اختلاف مراتبهم واختصاصاتهم من يدعو إلى هجر التقعيد النحوي والصرفي، ثم إلى استبدال العامية بالفصيحة في الحياة العامة وفي النتاج الأدبي والثقافي والإبداعي على حدٍ سواء!

إن ما وصلت إليه الحال في الساحة اللغوية (وهي الساحة التي نبني فيها انتماءنا الصريح، ونخط هويتنا الفكرية ومشروعنا الحضاري العام، وندخل على المستقبل الذي نريده من أبوابه كلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية) لا يبشر بالخير أبدًا.

بل ينذر بشر ما نحن فيه: انحلال الروابط، وتجزئة الأرض، وضياع الإنسان وعزله، والانجراف المرسوم في تيار العولمة بمفهومها القائم الذي يعني السيطرة على الاقتصادات الضعيفة وطيَّ ثقافات أهلها لصالح الاقتصادات القوية وثقافاتها المتقدمة».

وبعد رصد هذا الواقع يقول بكل صراحة وشفافية وشعور عالٍ بالمسؤولية: «يؤلمني أن يصل بي التفكير في الهم اللغوي إلى الإحساس بعجزنا عن حمله في ساحتنا الوطنية وحدها، على حين تبقى معظم الساحات العربية بعيدة عنه على أقدار نسبية، فالغِناء خارج السرب يبقى صعبًا، ويصل بنا أحيانًا إلى الحزن، إذ يقود إلى التساؤل عن قدر الانتفاع بما نحن في صدده».

ومع ذلك يرى أن جدار الخلاص يتمثل في اللغة العربية الواحدة، وحدة الأمة ووحدة تراثها، صوت ضميرها العميق المنبعث من أعماق التاريخ وخشبة الصلب والموت في وقت واحد.

ومن آرائه ومقترحاته العملية في مجال تمكين اللغة العربية والتي زوّد لجنة التمكين بها تكليفُ متخصصين وضعَ معجم صغير تفصّح فيه أكثر المفردات والتراكيب ورودًا في المحكية العامية السورية ليكون في الأيدي تعود إليه اللجنة في توجهها، ووضعَ كتاب صغير تجمع فيه أهم قواعد الكتابة السليمة نحوًا وإملاءً، وتتولى توزيعه على الدوائر والمؤسسات، ووضعَ آلية للتدقيق اللغوي في مؤسسات الدولة قاطبة، واختيارَ العناصر الصالحة لتأدية هذا الواجب، إذ إن أكثرهم لا يحمل غير الشهادة الثانوية في أغلب الأحوال، ويرى أن يلجأ إلى زرع المدققين اللغويين في لغة البث في أجهزة الإعلام كلها لرصد الأخطاء وتنبيه المذيعين عليها، وألا يكتفى بإقامة الدورات التدريبية. وفي مجال الإعلام أيضًا اقترح أن توكل إلى بعض العاملين القادرين في مجال الإعلام كتابةُ برامج عملية خفيفة وجذابة تستعين بالحوار والحكاية والمشاهد التمثيلية السريعة لبلوغ هذه

الغاية، فإذا بلغ البرنامج من النجاح ما يجعل وسائل الإعلام العربية الأخرى تحذو حذوها وتقتدي بها، فيقع الإشعاع بها في الطرفين.

وفي الاحتفال بيوم اللغة الأم في الحادي والعشرين من شباط اقترح إقامة موازنة بين النهوض بالعبرية الميتة حتى نهايات القرن الماضي، والرقي بها إلى درجة استيعابها للمنجز العلمي المتطور وإنتاجه، وبين العربية في مؤسسات التعليم العالي في الساحة العربية قاطبة، وقد سموا جامعتهم الجامعةَ العبرية لا الجامعة الإسرائيلية لإدراكهم مكان اللغة من سعيهم إلى طوائفهم في أنحاء العالم القديم والحديث.

وفي مجال التحرر من الأمية دعا إلى إنشاء مراكز لا مدارس لتحرير كثير من الشباب (ذكورًا وإناثًا) من ربقة الأمية في الأرياف بخاصة، فإن ما رآه من أعدادهم في حلب كما يقول يسد البصر! وقد أنهى بعضهم خدمة العلم، وغادرها على الحال نفسها! على حد تعبيره.

أما مقترحاته في مجال القراءة فقد تجلت في تخصيص بعض الأركان في المقاهي ودور الترويح والأماكن التي يرتادها الناس على اختلاف مقاصدها، تعرض فيها، فضلًا على الصحف والمجلات، كتب جذابة خفيفة تغري الرواد باقتنائها لهم أولًا ولأولادهم في البيت. وإن إقامة مكتبات صغيرة في البيوت تجمع فيها الكتب في مدار الأيام، ويعين الرجوعُ إليها على تقوية الحافز، وغرسِ عادة القراءة في أفراد الأسرة صغارًا وكبارًا خطوةٌ أصبحت ضرورية في عصر التلفاز والحاسوب والشابكة، والانصراف منها عن القراءة الورقية التي هي الأساس دائمًا لكل ما ننوي النهوض به.

ولعلَّ من أكثر المقترحات التي ركز عليها مقترَحه: الجدية، الجدية، الجدية، والتقليل من الكلام والتنظير، مع الكثير من الفعل، هما الدواء الشافي لمجتمع مسترخ لا تصلح فيه التعميمات والتنظيرات مهما تفننا فيها.

وبعد أن قدم فقيدنا الراحل باقة من المقترحات العملية للنهوض باللغة العربية يقول: «أتمنى أن يكون محصول الجُهد الذي تبذله اللجنة على مختلف الصعد مرضيًا فإن العبرة دائمًا بالنتائج، وللنتائج مقدمات، والمقدمات تقتضي أن تكتسب قرارات اللجنة صفة الإلزام».

أيها الحفل الكريم

كان فقيدنا يتسم برهافة الحس ويقظة الوجدان ورجاحة العقل، يزين ذلك كله مشاعر إنسانية نبيلة افتقدناها في عصر انحسرت منه القيم المعنوية واجتاحته قيم الاستهلاك، وسادت فيه المصالح حتى بات ينطبق عليه قول شاعرنا العربي:

حياك من لم تكن ترجو تحيته لولا المصالح ما حياك إنسان

في عصر تلك هي سماته كان فقيدنا الكبير ينأى بنفسه عن مواضع التهم ويشمخ بمثله وقيمه في عالم الحق والخير والجمال، فكان الاتزان في سلوكه فكرًا ونزوعًا وأداءً يتجلى في جميع المواقع التي عمل فيها، وكان الألق في منظومة المناقب التي يتحلى بها عفة ونبلًا وكرامةً وأناةً.

وسيبقى اسم فقيدنا الغالي ماثلًا في العقول والقلوب لأنه كان بارًا بتنوير العقول والبصائر، وعاملًا على إشاعة الحب في القلوب ببيانٍ عذبٍ، وأسلوب رشيق، تزينه عواطف إنسانية نبيلة، ومشاعر وجدانية رقيقة.

رحم الله فقيدنا الكبير الرحمة الواسعة سعة ما أعطاه لأمته من أفانين الثقافة الهادفة والملتزمة. وما أعظم ما أعطى! وما أفدح ما فقدناه برحيله! إلا أنّ عزاءنا برحيله الأبنية البشرية العالية والقوية التي بناها بنين وبنات فأحسن البنا علمًا وخلقًا ومناقب رفيعة (الدكتور محمد، والدكتور أحمد، والدكتورة سحر، والدكتورة عبير، والدكتورة رحاب: حفظهم الله جميعًا). وعزاؤنا برحيله المؤلفات القيمة التي أبدعها يراعه فأضحت منهلًا

عذبًا لرواد العلم وناشدي الثقافة. وعزاؤنا برحيله السيرة العطرة التي خلَّفها وراءه:

يضوع عبير المسك إن ذُكر اسمُه فنذكره والطيب يعشقه القلبُ

وأخيرًا أتساءَل قائلًا:

مَنْ للفصاحةِ بعد فقدِ الأشتر مَنْ للفضيلة والسماحة والتقى؟

قلبي يشارككم عظيم مصابكم في مؤمنٍ نحو الجنان قد ارتقى

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته